

المعقول واللامعقول في التاريخ الجديد

- زابر أبو الدهاج / جامعة وهران

تقديم :

يعتبر التاريخ الجديد بمثابة قطيعة معرفية مع نمط معين من النظر الفلسفي ومع مستوى معين من الكتابة التاريخية، فقد أضحي للزمن وللأزمنة نفسها معنى مغاير لمعناها في التاريخ الذي سيسمى تقليديا، كما أن مقولة "الزمن القصير" التي ترتبط أكثر بالحدث سيتم تجاوزها واستبدالها بمقولة "الأمد الطويل" في حين أعيد الاعتبار للمصادر المنسية كالتاريخ الشفوي والتراث المادي وتم تسليط الضوء عليها من زوايا جديدة .

ولم يعد هناك تاريخ واحد شمولي بالمعنى الهيجلي، بل تواريخ متعددة في حاجة إلى طرح تساؤلات جديدة حولها، فتاريخ الأمة هو ليس فقط تاريخ القادة والقاتحين وكل من ينتمي إلى القمّة، بل أقحم التاريخ الجديد كل "المغيّين والمنسيين والمهمّشين أو الهامشين"¹ ولم يعد من المهم معرفة تاريخ السلالات والشخصيات، بل تناول الظواهر الذهنية والاجتماعية منذ فترات نشوئها مروراً بفترات نشاطها حتى تنتهي، فهذه الظواهر التي تبدو أنها ازدهرت وأفلت هي في الحقيقة تتواصل بأشكال مختلفة وفي حلى متنوعة في مجملها أو على الأقل في البعض من خصائصها أو ملامحها .

ولما كانت الظاهرة التاريخية لا تنتهي بمجرد ذبولها، فإن مقارنة فينومينولوجية بسيطة تجعلنا نكتشف طبقات المعنى التي تسكن الظواهر من خلال الحضور في

¹ - لوغوف جاك وآخرون، التاريخ الجديد، ترجمة وتقديم: محمد الطاهر المنصوري، مراجعة: عبد الحميد هنية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت 2007، ص 439.

الزمن، فالتحول أو التطور يحتوي على خيط رفيع يمتد عبر كافة المراحل بأشكال مختلفة على مستويات التمثيل والخطاب والممارسة .
فالضرورة أضحت ملحة للإهتمام بالشرائح الاجتماعية الغائبة أو المغيبة من نصوص السير والملاحم والسرديات، فهي وإن كانت تحتل مكانا هامشيا، إلا أن فتح مناطق جديدة لاكتشاف تجارب أولئك الذين غالبا ما يتم تجاهل وجودهم أو ينظر إليهم بلا إكثارات أو يرد ذكرهم بصورة عابرة في المسار العام للتاريخ، رغم أنهم في الكثير من الأحيان يكونون الصانع الحقيقيين للتاريخ، يكشف الكثير مما هو منسي رغم أنه ينتمي إلى التاريخ ، ويجعل التاريخ تواريخ فكيف سيساهم ذلك في بناء المعرفة التاريخية ؟

وأقرب مثال منا ما حدث في المنطقة العربية من حراك، فإن تعددت الآراء حوله واختلفت الانطباعات، وإن تداخل فيها السياسي بالاجتماعي والاقتصادي والديني كذلك من خلال فتاوى ومواقف علماء الدين في مختلف المذاهب والتيارات من التحولات التي تحدث على مستوى هرمية الدولة والمجتمع، فإن ما هو مؤكد أنها انبثقت من **عفوية الجماهير**؛ من لا تنظيم سياسي أو ديني بل من الفوضى التي قد لا تبدو خلاقة ومن حدس جماهيري خلاق ، فليس النظام وحده من يصنع التاريخ دائما بل قد يتشكل المشهد بعفوية لامعقولة وغير متوقعة.

تاريخ الحدس و فلسفة العلم :

وعلى ذكر الحدس فإن الاكتشافات العلمية لألبرت انشتاين **Albert Einstien** كانت في أغلبها عن طريق الحدس لاعن طريق العقل والجهد والذكاء، وقد صرح بذلك في حديثه عن فكرة "بصريات الحركة" التي أحدثت ثورة في الفيزياء يقول " أتتني بفعل حدسي، جعلني أبواي أدرس الكمان منذ أن كنت في السادسة من عمري، ويأتي اكتشافاتي الجديد نتيجة للمدارك الموسيقية "¹، كما أنه كان يعيش داخل عالم مختوم

¹ - شيفرد ليندا، أنثوية العلم، تر: يمنى طريف الخولي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، 2004، ص 266.

فيه بخياله حتى بات يحوم حول اللاوعي في الحياة اليومية، فقد كان عادة ما ينسى مفاتيحه وقفازاته، فالكثير من الأشياء كانت تفوته، حتى أنه كان يتنزه في يوم من الأيام بالآفة المحيطة بمنزله في Brinston فنسي أين يقع مكان إقامته !

كما توصل فينمان **Richard Feynman** المتحصل على جائزة نوبل للفيزياء في 1965 لعمله حول الكوانتم إلى إختراق التفاعلات بين الإشعاع والإلكترونات "عن طريق الحدس بعد جملة من المعادلات والرسوم البيانية والنظريات"¹ كما يذكر ذلك صديقه الفيزيائي **فريمان ديسون F.Dyson**، والحدس ليس عملية ميكانيكية للمخ؛ حيث أنك إذا وضعت في المخ معلومات كافية وحقّرتها بما يكفي، فسوف يتأتى توليف جديد، فإذا كانت الإستبصارات تنشأ من إعادة تنظيم معلومات بطرق مختلفة، إلا أن هذا لا يشكل الإبداع، لأن القفزة الإبداعية تتجاوز المعلومات المعطاة وتضيف إليها شيئاً ما مستجداً، تبدو وكأنها تجذبه من حيث لا ندري كيف يسير هذا الأمر.

وهكذا يزودنا الحدس ببصيرة تنفذ إلى طبائع الأشياء، ولا يمكن التنبؤ به وهو فردي ويأتي إجمالاً ومضة واحدة عن طريق "وثبة الحدس" ويختلف عن العمل الأكثر جدية وانضباطاً وعلى التنظيم الأكثر صرامة للعقل في أنه لا يمكن دفعه أو التكلم فيه، فلا بد من إستمالته.

وفي بعض الأحيان تأتي ومضة الاستضاءة من الأحلام بالمعنى الحرفي وقد جمعت ليندا شيفرد Linda Jean Shepherd بعض النماذج مثل الكيميائي الألماني فريدريك أوغست كيكولي **F.A.Kekulé** (1829-1896)، فبينما كان Kekulé يغفو في مقعده بجوار المدفئة رأى في نومه أفعى يتلوى ذيلها، فهب مستيقظاً كما لو كان بفعل ومضة من الاستضاءة قد تفهم بنية جزيء البنزين

¹ - Dyson Freeman, Distrubing the universe , new york , Basic books , P56.

الدائرية التي أُرقت الكيميائيين، وقد طرحت هذه الرؤية نواة اكتشاف اعتبر بأنه "جزئية من التنبؤ الأكثر توقدا في كل ما يضمه مجال الكيمياء العضوية"¹ كما أن الفيزيائي بور **niels Bohr** (1885-1962) حلم بالنظام الشمسي كنموذج للذرات ومنه ترجم "نموذج بور" لبنية الذرة الذي حاز به جائزة نوبل .

وبعد دورة مكثفة من العمل والتركيز تمثل الكيميائي الروسي مندليف **Dimitri Ivanovitch mendeleiev** (1885-1907) في أحد الأحلام الجدول الدوري الذي ينظم كل العناصر الكيميائية؛ ففي إحدى ليالي 1869 آوى إلى فراشه منهوك القوى بعد أن تعب في البحث عن تصور طريق لجدولة العناصر على أساس أوزانها، وفيما بعد كتب يقول: رأيت في الحلم جدولا تحتل فيه كل العناصر مواقعها بالشكل المطلوب، وفور أن استيقضت سجلت هذا على ورقة ، وبعد هذا لم يظهر إلاّ تصويب واحد ضروري في أحد الأماكن .

أمّا إلياس هو **Eleyes Howe** فقد أخفقت محاولاته المبكرة لسنوات عديدة في اختراع ماكينة الحياكة المتشابكة، حتى استيقظ ذات ليلة من كابوس، فقد اعتقله ملك وجنوده وطالبوه بإنجاز الآلة وإلاّ أعدموه، وشاهد نفسه محاطا بمحاربين ذوي بشرة داكنة ومصبوغة وقد شكّلوا دائرة حوله بعد أن اقتادوه إلى ساحة الإعدام، وفجأة تراءى له كيف أن الرّماح التي يحملها أولئك تحمل بالقرب من رؤوسها ثقبوا لها شكل العين! لقد انفك أمامه اللغز، فقد كان يفشل لأنه جعل الثقب في ساق الإبرة، فهرع فورا فصنع نموذجا لإبرة مدّبة على الشكل المطلوب وعن طريقها اقتربت تجاربه من حافة النجاح.

وحتى في التاريخ الإسلامي فقد كان للحلم وللهاجس تاريخ، أحلام رآها خلفاء غيرت توجهات ومواقف رسمية سياسية ودينية لدول عريقة وامتدّت الأطراف،

¹- Arthur koestler, the Act of Creation, New York , macmillan, 1964, P :118

كحلم المأمون وحلم المنصور الموحدي، ومقاربة الحُدس بالعلم الطبيعي والفيزيائي و باللاوعي السياسي كذلك هنا، هو مقاربة للحُدس بالتاريخ ؛ فالتاريخ المعقول الذي يكتبه لنا المؤرخ، لطالما كان بمعقوليته يلغي عدّة عناصر أخرى غالبا ما تدخل في دائرة اللامعقول، الذي سيصبح موضوعا مميزا فتح شهية التاريخ الجديد.

المركز و الهامش :

ويهتم النموذج التقليدي بالظواهر السياسية بشكل أساسي وأولي من خلال مقولة "التاريخ سياسة الماضي والسياسة تاريخ المستقبل" ومقولة "الحرب هي ممارسة السياسة بوسائل أخرى " أوهو السياسة لما تفقد أعصابها، فكيف ستتخلص الكتابة التاريخية بل كيف يتخلص التاريخ نفسه من هذه المركزية التي يشغلها السياسي ؟

فقد تشكّلت ثنائية المركز/الهامش وطبعت مسار التاريخ منذ زمن طويل، ويمكننا تشبيهها بثنائية المتن/ الهامش التي امتازت بها الكتابة العربية الإسلامية من خلال المتن وحواشيها في مدونات الفقه والأصول والكلام ، فقد يوجد في الهامش ما لا يوجد في المتن تماما كما قد يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر كما يقول المثل، وعلى ذكر المثل فإن الأمثال الشعبية التي تنتمي إلى الثقافة الشعبية التي تعتبر في درجة أقل علمية من الثقافة العالمية، أصبحت محل بحث المؤرخين كذلك لفك رموزها وتأويلها لاستجلاء معانيها عبر التاريخ .

وأقل ما ترتب على تشكل هذه الثنائية هو تحوّل المركز إلى سلطة تملك القدرة على الحفاظ على الهامش أو الهوامش بنفس الوضعيات المرغوب فيها أو صناعة ما تشاء من الهوامش على ضفافها، وبهذا يصبح معنى الهامش نفسه ضبابيا، كما قد يكون الهامش أحيانا قابعا في هامش آخر، ولأنه معرّف من طرف

المركز فهو غير ذي أهمية ومتروك ومنسي وخسيس، وهكذا قسّم التاريخ التقليدي المواضيع إلى مواضيع نفيسة (Sujets nobles) ومواضيع خسيسة (sujets vils).

إلا أنّ كل أنماط النشاط البشري تنتمي إلى التاريخ، "لكل شيء تاريخ" على حد تعبير هالدان ¹ Haldane وهو ما يعني أنه لكل شيء ماض يمكن إعادة بنائه وربطه ببقية الحاضر، وبذلك ظهر الاهتمام بما كان يعتبر بقية تاريخ فأصبح للطفولة تاريخ وللموت تاريخ وللمناخ والألوان والروائح والإيماءات والقراءة والسرد والكلام والصمت تاريخ كذلك .

تاريخ الجنود بدل الحكام والملوك والمزارعين والحرفيين بدل الساسة والقادة، المدينة وشارع الطبقة التي لا تعمل، العشوائيات في المدن والأحياء والأزقة، الدهاليز والسطوح، الثقافة الشعبية والمخيال الرمزي، وكمثال على ذلك الاستثناء الذي مثله آريس Philip Aris الذي يوصف بأنه مؤرخ يوم العطلة الأسبوعية، ومن هنا فإن مقاربات التاريخ بالعلوم الإنسانية المجاورة كالأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس والجغرافيا والسيميولوجيا ستساهم بقدر كبير في صناعة المعرفة التاريخية.

والتاريخ وفقا للتصور التقليدي سردا للأحداث في حين يهتم التاريخ الجديد بتحديد البنية أكثر من السرد، فقد اعتبر بروديل Fernand Braudel صاحب كتاب المتوسط والمتوسطي méditerranée et le monde La méditerranéen à l'époque de Philippe II. الأحداث والوقائع بمثابة " موجات وزبد موجات فوق القمم تنشط بصورة سطحية عبر حركة تنفس

¹ - Haldane jhon burdon sanderson, Every think has history, l'université du Michigan- edited by ; Allen and Unwin , 1951, P 18.

الكتلة المحيطية ¹، فهم جدا الإهتمام بالتغيرات الإقتصادية والتحوّلات الاجتماعية والجغرافية المعقولة واللامعقولة، فالناس يصنعون التاريخ ولكنهم لا يشعرون بذلك، فحتى للمُتخيل الاجتماعي الذي يستحضر الإنسان من خلاله العالم الغيبي ويتصوره، ويبنى عليه جملة من السلوكات الاجتماعية والاعتقادات الراسخة تاريخ، فأحيانا يكون عالم الغيب حاضرا في عالم الأحياء كالإعتقاد في تنقل أرواح الأموات بين الأحياء وقدرتها على التأثير في حاضر الناس.

فلم يعد من المجدي أن نرجع كل هذه الحركة المعقدة والعميقة وذات الأمد الطويل إلى محرّك واحد كالعوامل الإقتصادية مع الماركسية أو للروح المطلق الهيجلي أو لحرية كانط أو لتيμος Thimos فوكوياما أو لصراع هتغتون أو لحركة السكان في نموذج مالتوس **maltus** أو لعصبية ابن خلدون التي لم تصدق في حالة الخوارج الذين تشكلوا كتحالف لاقبلي منذ أن انفصلوا عن جيش علي في صفين ومنذ التحاقهم بحاروراء ومبايعتهم لعبد الله بن وهب الراسبي إماما لهم.

صحيح أن زمن الخوارج قد انتهى ولكن الخوارج لم ينتهوا، ولهذا فالضرورة ملّحة إلى إعادة ترتيب الزمن والإهتمام بالأمد الطويل، وتفتيت تلك الشئانية (مركز/هامش) من أجل تملك فكرة الزمن بوضع مركز الثقل الزمني في الحاضر، فالماضي هو "حاضر في حالة انزلاق" عند **Bernard le petit** أحد الحولياتيين في قراءته لمؤلف "الزمن والرواية" Temps et récit لريكور **P. Ricoeur** ²، فالحاضر يتعرض لخسارة في المعنى لأنه يجد نفسه مفسوخا بين ماض قد ولّى

¹ - Fernand Braudel, la méditerranée et le monde méditerranée a l'époque de philippe II 1976, P:21.

² - le Petit Benard, Paul Ricoeur , Temps et récit, L'ordre philosophique, tome 3, le temps raconté, seuil, paris, 1985, P:390.

ولا رغبة في تكراره ومستقبل شديد الغموض، لذا يقتضي منع أفق الإنتظار من الهروب وجعل انتظار ذاتنا أكثر تصميمًا.

التاريخ - الذاكرة :

والحديث عن الزمن الماضي هو حديث عن الذاكرة، وموقف الإنسان من الموروث التذكري الذي يقترب منه حتى يتماهى معه ويتعد عنه حتى يكاد ينساه، والنسيان ليس المحو، كما يرى نورا **Pierre nora** فالأثر سواء كان مادي أو معنوي، هو محرّك جوهري لأماكن الذاكرة فهو الرابط الذي يعجز عنه الوصف، ويصل الماضي بحاضر أصبح عبئًا ثقيلاً في إعادة ترتيب الزمن بواسطة آثاره التذكيرية"¹، وبذلك يتمثل نورا مقولات التاريخ الجديد التي دشت عهداً جديداً في كتابة التاريخ وفلسفته بإعادة رسم التاريخ نفسه من خلال فهم الظواهر بشكل مختلف إنطلاقاً من الآثار التي تركتها في الذاكرة الجماعية؛ الأحداث والرموز وشعارات الماضي.

وهذا التخلي / الإستعادة للتقليد التاريخي كلّ من خلال اللحظة الراهنية التذكيرية التي يعيشها الإنسان يفتح له المجال أمام تاريخ آخر "لا يهتم بالأعمال المحفوظة في الذاكرة والتي تسترجع في عملية التذكر بل بأثرها ولعبة استرجاعها في حد ذاتها، ولا يتخذ من الأحداث في حد ذاتها موضوعاً له إنّما بنيانها في الزمن، اندثار معانيها وانبعاثها، وليس الماضي كما حصل، ولكن إعادة توظيفه الدائمة واستعماله والتخلي عنه وضغطه على أزمنة الحاضر المتعاقبة، وليس التقليد ولكن كيفية تكوّنه وانتقاله من جيل إلى جيل"².

¹-Nora Pierre, les lieux de mémoire, Gallimard, paris, 1993, tom 3, P:26.

²-Nora Pierre, Ibid , P: 24.

فليست المؤثرات ما يهم هنا بل مفاعيلها، وهذا معناه البحث في تحولات الذاكرة، في واقع رمزي محسوس، وفي زمنها الواسطة الذي يعتبره Ricœur كجسر بين الزمن الحاضر الكينوني والزمن الكوني، وبذلك يبقى مجال الإمكانيات مفتوحا في إطار إعادة فتح إمكانات الحاضر الذي تغذيه إمكانات الماضي غير الثابتة.

ومن هنا تصبح مهمة المؤرخ أن يفهم الأمور في عمقها دون أن يلعب دور الوصي، وأن يحرر التاريخ من سلطته، فمهمته كعامل المنجم الذي يعمل في العمق، إنه يبحث في عمق الأرض عن المعطيات ويستخرجها إلى السطح ليستغلها مختص آخر مثل عالم الاقتصاد وعالم المناخ وعالم الاجتماع، ليستل كل واحد منها ما يمكنه تأويله وتحويله إلى معرفة مبنية.

المنطق الغائم:

في عصر أصبح لتكنولوجيا التواصل فيه دور مهم في نقل الحدث، تساهم التكنولوجيا في تطور البحث التاريخي رغم أن لوغوف **Jaque le Goff** حذر من الاعتماد عليها في صناعة التاريخ أو معرفة التاريخ ما دامت المسألة متعلقة بعالم للمعرفة كلي، إلا أن تدفق المعلومة والصورة يحرك فضول الإطلاع ولو بذلك المعنى الذي يعطيه دوسارتو **Micheal De - Sarteau** للمؤرخ المعاصر، حين يصفه بالمتسكع الذي يبحث في البقايا وفي هوامش الاجتماعي عن أشباح الماضي¹، فكل شيء أصبح محلّ فضول لدى المؤرخ الذي نقل نظره إلى الهوامش والأطراف والتخوم والنهايات والحدود البعيدة، أين يوجد قطاع الطرق والمهربون والزهاد والمجانين، وأن يسائل الثقافة المحلية والعادات والتقاليد والأعياد

¹ - دوس فرنسوا، التاريخ المفتت - من الحوليات إلى التاريخ الجديد- تر: محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، ص: 276.

والإحتفالات ؛الأفراح والمآتم، وبقايا المطبخ والسحرة والعرافين، المرضى والمساجين والمنحرفين والأقليات.

وقد أنجبت التكنولوجيا ما يسمى المنطق الغائم **Fuzzy Logic** الذي يطبّق في الرياضيات، فهو يساير الغموض واللايقين المتأصلين في عمليات التفكير الإنساني بجذوره الضاربة في الإيهام المتأصل في ميكانيكا الكوانتم، حين يتمثل الظواهر بوصفها أحداث متصلة بدلا من أن تكون خيارات بمعنى "كل شيء أو لا شيء"، فبدلا من حل المشاكل من خلال سلسلة قرارات نعم - أو- لا (يمثلها الواحد والصفر في أجهزة الكمبيوتر)، نجد أن استخدام الكمبيوتر للمنطق الغائم يعين أرقاما تقع في حيز ما بين الصفر والواحد، ويحوّل الأوصاف المحمّلة بالقيم مثل بطيء ومتوسط وسريع إلى إشارات شفرية وهذا ما ساهم في السلاسة والكفاءة العليا للآلات المطبّق فيها، ليفتح المنطق الغائم بذلك المجال لإقرار الثالث المرفوع في المنطق البسيط، منطق كل شيء أو لا شيء، "فالتعددية رحيمة الأفق تتيح سبلا متنوعة للرؤية والتصور"¹.

فقد تلاشى التصور الكلاسيكي للموضوعات البسيطة الجامدة الساكنة تحت وطأة ذلك الجانب من نظرية الكوانتم المعروف بثنائية الموجة / الجسيم، فلا يمكن فهم الجسيمات إلّا بوصفها تواصلات؛ أي فئات من الروابط تشكّل نسيجاً معقداً نسميه المادة، فلا يوجد شيء من قبيل الجسيم المنعزل، وطبيعة المادة الأساسية حسب النظرية ليست تراتبا هرميا من الأشياء بل روابط وتواصلات، ولما كانت كل أجزاء النسق مترابطة معا بواسطة نسائج من الجذب والتواصلات اللاموضعية؛ فإن كل جزء يتأثر بالتغيّر في جزء آخر من أجزاء النسق، وبهذا تكشف ثنائية الموجة /الجسم عن أننا يجب أن نلاحظ

¹- شيفرد ليندا، المرجع السابق، ص 168.

الموضوعات في أوضاع عديدة مختلفة لكي نعرف إمكانيتها الحقيقية، فلا تعد رؤية الواقع من حيث هو موجة أو من حيث هو جسيم أصوب من الأخرى. وإن كانت ميكانيكا الكوانتم قد عكست تحوُّلاً عن قوانين التراتب الهرمي المفروضة على البنية السكونية وهي تصف أنساقاً أكثر تعقيداً وتفاعلية تصف من خلالها الإحتمالات والعلاقات في الطبيعة؛ فإن فلسفة التاريخ كذلك ستبحث في شتى الإمكانات التي قد تتاح، خاصة وأنّ التاريخ يتحرك حتى ونحن نتساءل عنه ونبحث فيه ، فنحن فوق أرض متحركة للبحث.

نحن و التاريخ:

يرى الأستاذ المنصوري مترجم كتاب "التاريخ الجديد" أن تحديث الكتابة التاريخية العربية الإسلامية يحتاج إلى تحرير قراءتنا للتاريخ من العاطفة التي ننظر بها إلى مساره وحركته وردّها إلى العلم ومكتسباته، " فبقدر ما كان التاريخ العربي الإسلامي سميكا وغامضا، كان المؤرخون في وطننا العربي يتطللون بصفحاته الناصعة ويمرّغون أقلامهم بالزبد الظاهر، ويقفون منه على الربي والننوءات"¹.

فمازلنا ننظر إلى أبطالنا التاريخيين نظرة إعجاب ونكتفي بذلك، نحتفي بالإنتصارات ونغفل الهزائم والوهن، نتذكر فقط عصر الفتوحات وعصر هارون الرشيد وصلاح الدين الأيوبي لكننا نتغافل عمدا في الوقت نفسه عن الفترات الحالكة من تاريخنا ، الإنتكاسات والهزائم، لا نحاول فهمها من الداخل إنّما نستبعداها أو نرمي بها في اللاوعي الذي لن يكون سلة مهملات بطبيعة الحال، ثم نرجع ضعفنا وتأخرنا وتعطل حاضرنا للأجنبي المستعمر والحروب الصليبية وللإستعمار والإمبريالية وكأنه قدرنا المحتوم..ماذا سنقول حافل بالإستعمارات هو تاريخنا، لكن هل سنظل نتأسف على شاكلة الأنا العربي "الجريح" أو الأنا العربي "الشريد" و "المأزوم" أو نتلطف بأنفسنا

¹- لوغوف جاك، التاريخ الجديد، مقدمة الكتاب ، ص 22.

قليلا لنقول الآن "المتأخر" و"المستهلك" و"المقلد" أو "التائه" في الغرب أو "المفقود" في الماضي تماما كما سميننا الأندلس بالفردوس المفقود ؟
ثم يحاول الأستاذ أن يوظف مفهوم "الأمد الطويل" لبروديل في بعض الظواهر داخل المجال العربي الإسلامي، مثل ظاهرة "الخضوع للسلطان" وهو خضوع قديم تم التعاطي معه بأشكال مختلفة عبر التاريخ، فهل يمكن النظر إلى هذه الظاهرة كنتيجة من نتائج الإستعمار، رسوبات وتراكمات الممارسات والخطابات أم علينا أن نبحت أبعد من ذلك في فترات سحيقة في القدم البحث فيما هو تاريخي من خلال تمظهرات الظاهرة من جذورها وإيقاعها عبر الأمد الطويل، لنتساءل نحن منذ متى ؟ أ منذ مقتل عثمان وبداية الخلاف أين إنتقل المجال الديني / السياسي من نموذج الخلافة إلى نموذج الملك مع معاوية، أو قبل ذلك منذ وفاة النبي (ص) وانقطاع الوحي، والانتقال من دولة السماء وسلطتها الروحية- الكونية المقدسة إلى دولة الأرض و سلطتها الدنيوية - الإجهادية الزمنية ؟

وفي الواقع ليس فقط ظاهرة الخضوع للسلطان بل الخضوع للعديد من السلطات بشكل إعتيادي، سلطة الأغلبية وسلطة الحضور وسلطة الخطاب وسلطة الماضي بما في ذلك سلطة الخضوع للقراءة الواحدة والوحيدة للتاريخ.

وبأخذ المنصوري أعمال عبد الله العروي كنموذج للرؤية المعاصرة، إلا أنه يختلف معه في الكثير من ترجماته لمصطلحات التاريخ الجديد، فمثلا ترجمة "Long Durée" بالإيقاع البطيء¹ قد يجانب حقيقة المفهوم المقصود، فالأمر Durée يفيد الزمن ولا يفيد الفعل، في حين أن كلمة إيقاع تعني الفعل، والمقصود بمفهوم "الأمد الطويل" هو مسار الظاهرة التاريخية ضمن حيز زمني طويل مهما كان نوع إيقاعها سريعا أو بطيئا.

فهل سنقول نحن كيف يختلف التونسي مع المغربي في ترجمة المصطلح رغم أنهما ينتميان إلى نفس الفضاء المغربي ؟ أم نقول أنه ربما ما قصده العروي بالإيقاع هو فعل الزمن نفسه، أي وقعه ما دام له إيقاع بمعنى من المعاني، فهو بطيء وطويل، ومن ثم فالخلاف لا

¹- العروي عبد الله ، مفهوم التاريخ، ج2، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1992.

يعدون أن يكون لغويا بين تصورين وفهمين صحيحين لمعنى واحد ، والمهم هو المايحدث أي إيقاع تلك الإرهاصات البعيدة في الزمن مهما كان سحيقا، أفعالا وردود الأفعال داخل السلاسل والانقطاعات والتمزقات والجيوب.

التاريخ و التأويل :

وقد استفاد فوكو Micheal Foucault في حفريات المعرفة L'archéologie du savoir من العمل التفكيكي لمدرسة الحوليات، فاحتضن التاريخ الجديد وأجرى تجارب ملموسة على الطب السريري والجنون والسجن، فإن "وصفا شاملا يجمع كل الظواهر حول مركز واحد، مبدأ ، معنى وفكرة ونظرة للعالم وشكل عام، إلا أن تاريخا عاما يقوم بتهيئة مجال للتشتت"¹.

فلا يريد فوكو التأليف أو التركيب الشمولي التي يعتمد على المركز وعلى الكل العقلاني وإنما يفضل الأجزاء من المعرفة من خلال الخطاب – المؤسسات- الممارسات ويعلن نهاية التاريخية والتاريخ كأمر كلياني، فعلى التاريخ أن يتخلى عن إعداد التركيبات ويهتم عكس ذلك بتجزئة المعارف، فلن يكون التاريخ وصفا "لتطور" وهو مفهوم مستعار من البيولوجيا ولا علامة "تقدم" وهي فكرية أخلاقية، بل القيام بتحليل التحولات المتعددة والتعرف على الانقطاعات كما لو أنها ومضة خاطفة، فلم يعد للكائن البشري تاريخ واحد طالما يجد نفسه متشابكا مع تواريخ ليست خاضعة له، "فلم يعد هناك تاريخ شمولي بالمعنى الهيجلي، بل كل ما هناك تواريخ تتخللها انقطاعات وتحولات لا نلاحظ إلا كيفية وأماكن وقوعها دون أن نطرح السؤال حول تكوينها"².

إلا أن آرون Rymond Aron عبّر منذ 1948 في كتابه "مقدمة لفلسفة التاريخ" عن رفضه فكرة محرك أساسي لحركة التاريخ الشامل، حين يميّز داخل الواقع التاريخي أبعادا

¹- فوكو ميشال، حفريات المعرفة، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، 1987، ص:41.

²- فوكو ميشال/نظام الخطاب- الدرس الافتتاحي الملقى في الكوليج دوفرانس سنة 1970 _، تر: محمد سبيلا، دار التنوير بيروت، ط1، 2007، ص:39.

عميقة الغموض تكون عصية على أي مقارنة شمولية، وينصح التاريخ بأن يتراجع نحو مواقع أكثر تواضعا وأن يتخلى عن طموحه في أن يكون علما، "فليس التاريخ موضوعي أبدا"¹. وكذلك عند فاين **Paul Veyne** فإن التاريخ لا يمكن أن يكون إلا حبكة ورواية، "فليس التاريخ علما لأنه ينتمي إلى التخمين"² فأى محاولة لبناء ترانبي ووضع حزم في نقاط إلتقاء لا تسمح بالعقلنة، فكل طبقة من الأحداث تستدعي تقسيماتها الزمنية الخاصة بها، وهي لا تقع داخل سلم من ترانبية الحتميات، وهكذا نجد أن الواقع يهرب ويتفقت بمنطق زبقي عن مؤرخ اليوم.

أما نقيض ذلك نجده عند **Philip Aris** الذي يضل متماسكا بمقاربة انطباعية، ويهمه مشهد العالم وتنوعه أكثر مما يهمه في الواقع التفسيرات التي يكون مجبرا على تقديمها، فإذا تعذر التفسير فإن آريس يروي ويصنّف ما دام قد ساهم في إقحام "حقل الذهنيات" مجال التاريخ الجديد، لكن "دون أن يقوم بدمجه ضمن مشروع عقلائي منسجم التخطيط"³، فهو يرى أنه عندما تكون هناك أسباب عديدة لظاهرة ما فهذه الظاهرة ليس لها سبب وبذلك تبقى دون تفسير، ولكن رغم ذلك اخترق آريس التاريخ الكلي والكثيف بتاريخ الخصوصيات والموروثات. وقد قسّم فوكو الواقع أركيولوجيا⁴ في شكل قطع لكل سلسلة منها نسقها الخاص (الإبستمي) وانقطاعاتها المعبرة خارج السياق العام تشكّل بنية الأنساق والإبستميات وانهيائها يشكّل تسلسل تاريخي خاص، فلم يعد هناك مركز ولكن طبقات، لم يعد

¹- Aron Raymand, introduction a la philosophie de l'histoire , Bibliothèque des sciences humaines, Gallimard, 1984, P : 316

²-Veyne Paule, comment on écrit l'histoire, essai d'épistémologie seuil, paris, 1971 ,P :46

³- دوس فرانسوا، المرجع السابق، ص 277.

⁴- فوكو ميشال، نظام الخطاب، ص 61.

هناك محرّك بل انقطاعات وتمفصلات ضمن ثورات بمعنى كوهن **Thomas Khon** ومن ثم فعلى الخطاب التاريخي أن يصف الأشياء. والعودة إلى الوصف هي رفض للكليانية مع اعتبار أن الوصف هنا ليس السرد ولا الرواية وإنما هو خطاب علمي لتفكيك المادة التاريخية، كما أن مصطلحات فوكو نفسها مثل السلسلة والانقطاعات والحقل ونظام العلاقات والتحوّل والإنصهار والوحدات تنحدر من الرياضيات والفيزياء، وفلسفة التاريخ بهذا الشكل تتأسس على مفهوم أداتي للتاريخ بمعنى من معاني العلمية، فقد غزى التطور العلمي مؤرخي وفلاسفة الفكر التاريخي الجديد وذلك ما يعبر عنه **Marck Bloch** بقوله لم يعد جونا ذهني هو ذاته، فإن النظرية الميكانيكية لأنشتاين ونظرية Quanta قد غيّرتا بصورة عميقة الفكرة التي كان يحملها في الأمس القريب كل واحد عن العلم.

إستراتيجية الحوليات (Ecole des Annales) (1929) :

لا يمكن الحديث عن نشأة وتشكل مدرسة الحوليات دون الحديث عن مجلة التركيب التاريخي *La revue de synthèse historique* (1903) التي كان يديرها هنري بير **Henri Berr** والتي بدأت تنتقد فلسفات التاريخ وكتابات المؤرخين، فقد كتب سيميان **François Simiand** مقالا بعنوان "المنهج التاريخي وعلم الاجتماع" وُصف بالمهم لأنه شكل التحدي الأكثر راديكالية لم يعرف من قبل، وجاء بمثابة عملية استيلاء على الخطاب " ¹، إذ أنه ينخرط في المنظومة الشاملة للهجوم الذي يقوده "علم الاجتماع" على المؤرخين بغية الإستفادة من آلياته وتصوراته والخضوع لإشكالياته.

وقد استهدف سيميان بالنقد كتاب سينيوبوس **Charle seignobos** "المنهج التاريخي المطبق على العلوم الاجتماعية *La méthode historique appliquée aux sciences sociales*، ودعى المؤرخين وفلاسفة التاريخ عموما إلى أن

¹- دوس فرانسوا، المرجع السابق، ص 48.

يتخلصوا من بهرجهم ليجددوا أنفسهم، واعتمد الصورة المجازية لـ **F-Bacon** ،

حين حدد ثلاثة من أصنام المؤرخين :

- الصنم السياسي: التاريخ السياسي.

- الصنم الفردي: العادات الراسخة في فهم التاريخ كتاريخ الأفراد.

- صنم التسلسل التاريخي: عادة الضياع في البحث عن الأصول.

فلا بد من العبور من المفرد إلى الظاهرة المنتظمة وإلى العلاقات الثابتة التي تسمح

بإستنباط قوانين علمية ومنظومات سببية ، وإن كان سيميان ينتمي إلى الدوركايمية

وهو يخوض صراعا بدى في البداية كأنه "خطأ تكتيكي" إلا أن هذا الصدام بين علم

الاجتماع والتاريخ خلف بعد ذلك وثاما وانفتاحا !

كما استاء الكثيرون في ألمانيا من لامباخت **Karl Lamparcht** لأنه كتب عبارات

موحية بإزدراء للنموذج التقليدي ووصفه بالنموذج "المتركز حول الأحداث والوقائع

Histoire évènementielle¹ وقد نشر الباحث السويسري بوركهارت **Jacob**

Burchardt كتابه "حضارة النهضة في إيطاليا" وهي دراسة في التاريخ الثقافي تهتم

بالإتجاهات المعرفية والتيارات الإيديولوجية والمذاهب الفكرية أكثر مما تسرد الوقائع.

وفي 1929 بينما كان بلوخ يجد راحته في الكتابة أكثر من المشاهدة، كان

فيفر **Lucien Febvre** يبهر مستمعيه لأول وهلة بطبعه الحاد، فقد كان الزميلين

يساهمان في مجلة التركيب التاريخي بكتابتهما التي تحمل التصور الحولياني.

ويمكننا الحديث عن لوسيان فيفر من خلال دراسته عن مارتن لوثر

Martin Luther وأطروحته حول عصر فيليب الثاني ومنطقة الفرائش كومتى

franche comté ، حيث وضع في الكتاب الأول نفسية الفرد (لوثر) وجها لوجه مع

المحيط الذهني لألمانيا في القرن 16 ليربط ذلك بالإصلاح الديني والإنشقاق عن

¹-Burke peter, the french historical revolution polty press, cambridge, 1990, P:13.

روما، وهذه ليست عودة لتاريخ الفرد وإنما " مقارنة الطموحات الفردية والاجتماعية بالجو الذهني أو الفضاء العام المشترك" ¹ يهدف من خلالها علم النفس التاريخي إلى إعادة بناء الأطر الذهنية للعصور الماضية، ومقاومة ذلك الميل الطبيعي الذي يدفعنا إلى إسقاط مقولات تفكيرنا وعاداتنا الفكرية وشعورنا ولغتنا على مجتمعات لا معنى لهذه المقولات فيها، أي "تاريخ الأفكار والأفعال الواعية والإرادية والموجهة في اتجاه القرار السياسي" ².

أما أطروحته فقد قارب من خلالها الصراعات الاجتماعية الناشئة والمقاومة التي أبدتها منطقة **Comté** بالصراع السياسي بين طبقتين اجتماعيتين: النبلاء والبرجوازية من أجل السلطة والهيمنة، فبحث فيفر من خلال ذلك الصراع الذي عرفته المنطقة في النصف الثاني من القرن 16 في الواقع اليومي وفي التحولات الغامضة والمهملة وفي الثقافة الشعبية كذلك، ويصف هذا التداخل بين الضغوطات الاجتماعية والسياسية التي تنفجر عندما ينقطع التوازن، ليستنتج أن هذا التاريخ من وراء صراع الزعامات يؤس للمنطقة، جلب لها فائضا بشريا، وارتفاع في الأسعار والتخريب دون الكوارث والأوبئة كالطاعون العنيف الذي ظهر بالمنطقة بين 1584-1586.

وبينما تتجه الأنظار إلى تراجع طبقة النبلاء وتقدم البرجوازية لا ينسى فيفر أن " الفلاح البسيط كان ضحية المجهود الذي يبذله فهو الذي كان يوفر للنobil مصدر حياته، أصبح يوفر للبرجوازي مصدر ثرائه" ³، إنها لوحة متكاملة للمجتمع الكونتوازي قدمها فيفر على حد تعبير **فرانسوا دوس** بطريقة إشكالية رسمت في ذروة صراع ذو أبعاد

¹- Febvre Lucien, Un Destin: Martin luther, presses universitaire de France , paris, 1968 , p:41

²- أريس فيليب، تاريخ الذهنيات، ضمن -التاريخ الجديد- ص 280.

³- Lucien Febvre, Philippe II et la France comté, études d'histoire politique religieuse et sociale, Flammarion, Paris, 1970, P:199

إجتماعية وسياسية واقتصادية تراجعت وأحدثت تحولات لا عودة عنها كانت نهايتها تحولاً في طبيعة هذا المجتمع ذاته.

أمّا مارك بلوخ فقد فتح الباب للتاريخ الذهني من خلال كتابه "الملوك صناع المعجزات" **Les Rois Thaumaturges** فلم تقتصر مقارنته للذهني على حقل التفكير الواعي المنظم، بل بحث عن العلاقات القائمة بين المواقف الدينية والوقائع الاجتماعية لفهم الخلفيات الاجتماعية للتاريخ الديني والخلفيات الدينية للتاريخ الاجتماعي، ولا يبحث من خلال ذلك عن سببية بين هذه النظامين ولكن عن "علاقات تشابك ضمن البنى الزمنية"¹، وذلك ما ينتمي إلى الأنثروبولوجيا التاريخية والتي تبحث في أنماط الذهنيات السائدة في عصر من العصور؛ مراحل الحياة والإنفعالات وأشكال السلوك والاستجابات وطقوس الموت وكل ما يتعلق بلاوعي الممارسة الاجتماعية.

فقد ساد الاعتقاد في العصر الوسيط الأوروبي بوجود قدرة رهيبة خارقة تسكن الملوك وأنهم قادرون على استجلاب النصر في المعارك وعلى علاج المرضى وجلب الحظ للتعمساء، فامتألت حياة الناس بالأخبار، والإشاعات لها تاريخ كذلك والدعاية وطقوس التطبيب والشفاء والروحانيات، وذلك ما ينم عن وحدة رموز السلطة والمقدس² كل ذلك يعني البحث في الذهنية البدائية واللاعقلانية التي تسكن مخايل الناس ميتولوجيا، وهنا الإشارة إلى كل من ليفي ستروس الذي طبق الفكر البنيوي على موضوعات مستعصية كالإنسان البدائي و أنظمة القرابة 1962 حيث

¹-Block Marck-les Rois thaumaturges, Etudes sur le caractère surnaturel attribué à la puissance royale particulièrement en France et en Angleterre, paris, A colin, 1961, P :344.

²- بورديو بيار، الرمز والسلطة، تر: عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط3، 2007، ص 21.

يقارب الأنثروبولوجيا بالتاريخ¹ وإلى غيرتر Cliford Geertz الذي يعتبر الوصف المكثف the thick description المنظار الصحيح للأنثروبولوجيا². وما يهم بلوخ في دراسته هو ليس أن يجعل المعتقد موضوعا تاريخيا فقط ولكن تحديد موقعه ضمن النسيج الاجتماعي الذي نشأ وترعرع فيه. خاصة مع تطور العقلانية وانهيار السلطة المطلقة بعد ثورة 1789 وبعد عصر الأنوار ، وأهم ما ساعده في تجربته حول دراسة البنى العميقة هو تجربته الشخصية نفسها؛ حيث شارك في حرب (1914-1918) كجندي وكمؤرخ يهتم بنفسية الجنود، فقد قالوا جاء ذاك الأستاذ اللامع بتواضع وببساطة ليضع نفسه تحت إمرتنا، وفي سنة 1944 أوقف وسجن ثم أعدم من طرف الألمان ضمن موقوفين آخرين. ورغم أن كل من بلوخ وفيفر ينتميان إلى مدرسة واحدة إلا أنهما لم يتفقا في المنهج والرؤية، ففي مقابل نزعة فيفر السيكلولوجية نجد أن الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع لدى مارك بلوخ أكثر ملائمة للتاريخ ، فالتاريخ في مجمله عند فيفر هو علم النفس بالذات أي حضور ماهو ذهني ونفسي في التاريخ، أمّا بلوخ فإنه "يصف الممارسات الجماعية ورمزيات المخيال الجماعي المشترك والتمثلات الذهنية غير الواعية والعادات الفكرية لمختلف المجموعات الاجتماعية"³، فأكيد أن اللغة التي يتحدث بها الغني في قصره تختلف عن لغة الفقير في كوخه، وأكيد أن الاختلاف بين الزميلين لم يكن اختلاف تضاد وإقصاء بل اختلاف تنوع وإثراء في الطرح والرؤية.

وفي خضم الصراع بين المحافظين من المؤرخين وفلاسفة التاريخ وبين أنصار التاريخ الجديد يقول بلوخ أن التاريخ الجديد لا يزجج إلا أولئك الذين "يقتاتون من التاريخ"

¹- بالانديه جورج، الأنثروبولوجيا السياسية، ترجمة: علي المصري، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1990، ص 127.

²- جيرترز كليفورد، تأويل الثقافات، تر: محمد بدوي، ص 84.

³- لوغوف جاك، التاريخ الجديد، تقديم الطبعة الأولى، 1978، ص: 57.

وأولئك التجار الذين يعرضون "حساء تاريخيا" لا يمكن لمستهلك له قليل من الإطلاع ويتمتع بحد أدنى من التكوين إلا أن يعلن أنه غث وفاسد ونفعه قليل¹، أما فيفر فيقول على الكتاب الجماعي الذي كتبه شارل سنيوبوس وآخرون "تاريخ روسيا 1932"، "أفتح تاريخ روسيا.. قياصرة مضحكون، لغط عائلي، وزراء مختلسون، موظفون بباغوات، تناقض في القرارات تحت الطلب، فالتاريخ هو الذي لم أجده في تاريخ روسيا هذا ولذلك فإنه قد ولد ميتا"²، هكذا وصل النقد العلمي للحولياتيين حد التهكم والتنفيه لمنجزات التاريخ التقليدي.

ويهدف مشروع الحوليات إلى القطيعة مع التصور الماضي المحض في الخطاب التاريخي والربط بين الماضي والحاضر من خلال بناء تاريخ يكون مجال بحثه ليس الماضي فقط ولكن المجتمع المعاصر، والتاريخ بهذا المعنى هو ما يطرحه هذا الإنسان على نفسه من أسئلة الحاضر، فمسائلة الماضي تتم من خلال استيحاء القضايا التي يطرحها الزمن الحاضر.

وتبني كل فترة تصورها للماضي حسب اهتماماتها، فالتاريخ يصنع الماضي الذي يحتاجه، ومن هنا فإن العلاقة ماضي - حاضر ستعمل في الإتجاه المعاكس، لأن جهل الماضي لا يسمح بفهم أفضل للحاضر، ومن هنا ينطلق بلوخ أي من الحاضر عكس المؤرخين ليصل عبر الزمن إلى مجتمعات الماضي، لأن المقاربة العلمية لأي بحث - كما يبرر- يجب أن تنطلق من المعلوم علما أفضل أو على الأقل من المعلوم علما أقل سوء إلى الأشد غموضا.

فحين قارب أرياف شمال فرنسا بأرياف إنجلترا، بدأ بملاحظة الاختلاف بين الحراثة الطويلة بلانهاية في منطقة **Picardie** وبين أراضي المراعي الإنجليزية المجزأة والمقسمة بأسيجة وحواجز ليساءل الماضي انطلاقا من هذا الواقع الملموس لتفسير اختلاف في

1- لوغوف جاك، مقدمة الطبعة الثانية، ص 35.

2- دوس فرانسوا، مرجع سابق، ص 89.

مناطق قريبة من بعضها البعض، فعاد إلى العصر الوسيط ودرس الأنظمة الزراعية للمجتمعات الفيودالية **Féodale** ضمن شبكة معقدة من العلاقات السياسية والاجتماعية وبنشأة الذهنيات وتمثلاتها وعلاقة الأرض بتطور الإنسانية.

هكذا حاولت المدرسة توسيع حقل التاريخ ليشمل الطبيعة والسكان والديموغرافيا والمبادلات والعادات والألسنية وعلم الآثار، فليس هناك ما يتحرك بذاته، لا يوجد شيء معطى كل شيء يبنى مثلما يرى باشلار **G.Blachlard** وذلك ليس في العلم الدقيق فحسب بل كذلك عند الحوليات؛ فالمعرفة التاريخية تُبنى بما في ذلك المؤرخ أو الوثيقة، وقد عبّر **فيغر** عن ذلك بقوله الجدران المرتفعة جدا (يقصد بين علوم الإنسان) حتى إنها تحجب النظر.

والتاريخ بهذا المعنى موسوعة يدخل فيها كل شيء وكل الناس بما في ذلك المجانين والخارجون عن القانون وقطاع الطرق مثل روبن **Robin Wood**¹ قاطع الطريق المحبوب أو صاحب القلب الكبير الذي لا يأخذ إلاّ متاع الأغنياء ويترك محاصيل الفلاحين الصغار.

وقد يبدو قاطع الطريق هامشي وغير مفيد ولكن البحث في ذلك من خلال جماعات المتمردين في سردينيا وفي شبكة المافيا في صقلية مهم كذلك؛ فقد قضت الرأسمالية على النظام الرعوي التقليدي واستحوذت على الأراضي، فظهرت شبكات بين الفلاحين والملاك العقاريين وأصحاب الأموال، وكثرت العصابات والخارجون عن القانون والمهريون والمخبرات، فحدث تجاذب للنفوذ ما دام ذلك مرتبط في مستوى آخر بالخلافات السياسية داخل الطبقة الحاكمة وسط المنافسة الاقتصادية، حيث تنشأ تحالفات جديدة للحفاظ على موازين القوى داخل هذا النظام المعقد للعلاقات والمصالح.

¹- سميث جون كلود، تاريخ الهامشيين - ضمن التاريخ الجديد، ص 471.

وذلك معنى مقولة من الدهليز إلى ما فوق السطوح De la cave au Grenier عند فوفيل **Michel Vovelle** ، ففي ثقافة الإنسان يكون السطح فضاءا منسيا رغم أنه متعدد الوظائف وكذلك الدهليز فهو مخفي في حين يكون المطبخ والغرف في مركز التصورات، ولما كانت الفردانية مكرسة في الغرب، فإن بيت الأوروبي مغلق على البيت الذي يجاوره، بينما سطوح البيوت العربية مفتوحة على بعضها لا تفصلها إلا جدران قصيرة، فكانت النساء تتبادل أطراف الحديث من خلالها، داخل هذا الفضاء الذي يقع فيما هو مشترك ليس معماريا فحسب بل على مستوى المخيال الجماعي المشترك، فالعلاقات بين المجموع أكثر حميمية هنا والمعمار نفسه انعكاس لما هو ذهني .

وبصورة كيميائية منصهرة يكون فيها الكل منصهر في الكل، يصف بلوخ الزمن التاريخي كأنه بلازما **Plasma** "إن الزمن التاريخي هو مادة البلازما نفسها التي تسبح فيها الظواهر" وبمقاربة الزمن بمكونات بيولوجية، فإن تفكيك الواقع بالنسبة لبلوخ هو الوسيلة لإدراكه وهو المرحلة الأولى من التحليل الذي يشترط فيه الشمولية، فإن الخطر يبدأ فقط "عندما يعتقد كل باعث نور (Projecteur) أنه يرى وحده كل شيء وتعتقد كل مقاطعة أنها وحدها الوطن"¹ كما يقول، وإن كان مفهوم Plasma يضل غامضا فيما يتعلق بطبيعة العلاقات الداخلية للنظام الاجتماعي، إلا أن بلوخ لا يتصور النظام الاجتماعي كمجرد ترصيف للإنسان الاقتصادي والإنسان الديني والإنسان السياسي، بل كتنظيم لتصور يطرح سؤال **الكيف**؟ بدل سؤال **الماذا**؟ ويظل الإنسان محور الخطاب الحويلاتي، وتاريخه ليس مسار منبسط وزمنه ليس ثابت لذلك هو علم متغير "هناك شيء يجب أن يفسر" وتلك هي مهمة فلسفة التاريخ، تفسير التغيرات والتحويلات .

¹ - Block Marck ; Apologie pour l'histoire ou métier d'historien , préface de Georges Duby, 7^{ème} édition, paris, colin, 1974, P: 126-127.

ولا يمكننا بطبيعة الأحوال أن نفصل تحولات الخطاب مع التاريخ الجديد عن الفضاء الفكري العام والتحويلات الجيوسياسية في موازين القوى بعد الحربين؛ تفتت المركزية الأوروبية، مركزية الأنا الأوروبية، ونشأة فلسفات النهايات ودعوات التحرر من فلسفة الحضور التي تشبعت بها الفلسفة من خلال مقولات اللوغس Logos على شكل "الخير الأفلاطوني" و"الأنا" الكانطية المتعالية و"الروح المطلق" الهيجلي...

كما أن خروج أوروبا شبه منهارة بعد الحربين كان في فائدة الوم.أ ليس على المستوى السياسي والعسكري فقط بل والتكنولوجي والعلمي، لتطرح إمكانية جديدة لصناعة المعرفة تقوم إلى استثمار أدوات العلم في دراسة التاريخ.

وإن دعي خطاب التاريخ الجديد إلى تجاوز المركزية الأوروبية إلى الحضارات العديدة والثقافات المختلفة الأخرى فإن ذلك قد تم في ظل حركة الأحداث وصعود قوى جديدة أكثر حيوية كالوم أ واليابان وكوريا، فالتشابك العالمي للمشاكل وحالة التبعية للعالم الجديد خففت من الرسالة الشاملة للأوروبيين.

كما أن نشأة التاريخ الجديد كمعرفة في فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا وسويسرا ليس معناه أنه متعلق بأوروبا فقط، فقد تطور في الوم.أ وهو يتناول القضايا التاريخية لمجتمع والتي قد توجد في مجتمعات أخرى بأشكال وأنماط مختلفة، ولما كان التاريخ الجديد منهجا كذلك بما يقدمه من تساؤلات منهجية ومن أدوات بحث فهو طرح تبدو إمكانية مقارنته خارج المجال التاريخي الأوروبي مفيدة بالتأكيد.

المصادر و المراجع:

1. بالانديه جورج، الأنثروبولوجيا السياسية، ترجمة: علي المصري، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1990.
2. بورديو بيار، الرمز والسلطة، تر: عبد السلام بن عبد العال، دار توفيق للنشر، الدار البيضاء، ط2، 2007.
3. جاك لوغوف التاريخ الجديد، تر: محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007.

4. دوس فرانسوا، التاريخ المفتت : من الحوليات إلى التاريخ الجديد ، تر : محمد الطاهر المنصوري ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، 2009.
5. كليفورد غيرتز، تأويل الثقافات، تر: محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009.
6. شيفرد جون ليندا، أنثوية العلم، ترجمة: يمني طريف الخولي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2004.
7. فوكو ميشال، حفریات المعرفة، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، 1987.
8. فوكو ميشال، نظام الخطاب- الدرس الافتتاحي الملقى في الكوليج دو فرانس سنة 1971- تر: محمد سبيلا، دار التنوير، بيروت، ط1، 2007.
9. العروي عبد الله، مفهوم التاريخ، ج2، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1992،

1. Braudel Fernand, La Méditerranée et le monde méditerranéen a l'époque de philippe2, 1976.
2. Bloch Mark, les Rois thaumaturges, etude sur le caractère surnaturel attribué à la puissance royale particulièrement en France et en Angleterre, Paris: A.colin, 1961.
3. Haldane jhon burdon sanderson, Every think has history, l'université du Michigan, edited by: Allen and Unwin, 1951.
4. Febvre Lucien, philipe 2 et la Franche Comté, etudes d'histoire politique religieuse et sociale, flamirion, paris, 1970.
5. Nora pierre, les lieux de mémoire, tome3, Gallimard, paris, 1993.